



خطبة صلاة الجمعة 18 / 8 / 2017 للشيخ الطيب محمد خير الشعال، في جامع أنس بن مالك، دمشق - المالكي

(مهنة السواقة -3-)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرشدًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، وصفيُّه وخليته، خيرُ نبيِّ اجتباه، وهدى ورحمة للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كره، اللهم صلِّ على سيدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أما بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال تعالى: ﴿وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَرُدُونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: 105].

وقال سبحانه: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ [الأنبياء: 94].
أخرج البخاري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ».

وأخرج البخاري ومسلم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يَفْقَهْهُ فِي الدِّينِ».

هذه هي الخطبة الحادية والعشرون في سلسلة (مهنتي: فقهها وآدابها)،
ونتابع اليوم الحديث عن: مهنة السواقة -3-، ولئن تحدثت الخطب الماضية عن مسائل فقهية في هذه المهنة، فإن خطبة اليوم تتحدث عن آداب مهنة السواقة.
أيها الإخوة:

لا أجد في الحديث عن آداب مهنة السوافة أكمل من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد روى البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«إياكم والجلوس في الطرقات، قالوا: يا رسول الله، ما لنا بد من مجالسنا، نتحدث فيها، قال: فإذا أبيتم، فأعطوا الطريق حقه، قالوا: وما حقه؟ قال: غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر».

وفي حديث أبي هريرة عند أبي داود بزيادة: «وإرشاد السبيل».

وفي حديث عمر بن الخطاب عنده بزيادة: «وَتُعِينُوا الْمَلْهُوفَ، وَتَهْدُوا الضَّالَّ».

وفي حديث ابن عباسٍ عِنْدَ الْبَرَّارِ مِنَ الزِّيَادَةِ: «وَأَعِينُوا عَلَى الْحُمُولَةِ».

وفي حديث سهل بن حنيف عند الطبراني من الزيادة: «وذكر الله كثيرا».

قال الإمام النووي: (وَيَدْخُلُ فِي كَفِّ الْأَذَى اجْتِنَابُ الْغِيْبَةِ وَظَنِّ السُّوءِ وَاحْتِقَارِ بَعْضِ الْمَارِّينِ وَتَضْيِيقِ الطَّرِيقِ).

فاجتمعت عشرة حقوق للطريق -وسائقو المركبات العامة والخاصة هم أولى الناس بأدائها- : غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإغاثة الملهوف، وهداية الضال، والإعانة على الحُمولة، وعدم تضيق الطريق على الناس، وذكر الله كثيرا.

وأخرج الترمذي عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ صَدَقَةٌ، وَأَمْرُكَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيُكَ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَإِرْشَادُكَ الرَّجُلَ فِي أَرْضِ الضَّلَالِ؛ لَكَ صَدَقَةٌ، وَبَصْرُكَ لِلرَّجُلِ الرَّدِيءِ الْبَصَر؛ لَكَ صَدَقَةٌ، وَإِمَاطَتُكَ الْحَجَرَ وَالشُّوكَ وَالْعِظَمَ عَنِ الطَّرِيقِ؛ لَكَ صَدَقَةٌ، وَإِفْرَاغُكَ مِنْ دَلْوِكَ فِي دَلْوِ أَخِيكَ صَدَقَةٌ».

بين يدي مراجعان يتحدثان عن أخلاقيات السوافة وآدابها، أولهما كتاب صادر عن وزارة النقل السورية توزعه الوزارة على المتقدمين للحصول على إجازة السوق وتختبرهم بما فيه، جاء الكتاب في ثمانية فصول، وعنونت الفصل الأول بمبادئ وآداب القيادة، وكأني بها مشكورة تقول: الأدب والأخلاق أولاً.

والثاني كتاب الأحكام والآداب الشرعية لسائق السيارة دراسة فقهية مقارنة بالقانون الكويتي، أعدها الدكتور محمد عبد الرزاق الطبطباني.

وها أنا أتخير لكم مما جاء الكتابين أربعاً من آداب مهنة السواقة:

أولاً: المحافظة على الأذكار الشرعية:

فهو زاد السائق الروحي في أثناء قيادته المركبة، روى أبو داود وغيره عن علي بن ربيعة قال: شهدت علي بن أبي طالب رضي الله عنه أتى بدابة ليركبها، فلما وضع رجله في الركاب قال: بسم الله، فلما استوى على ظهرها قال: الحمد لله، ثم قال: (سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ، وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ) ثم قال: الحمد لله، ثلاث مرّاتٍ، ثم قال: الله أكبر، ثلاث مرّاتٍ، ثم قال: سُبْحَانَكَ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، ثم ضحك، فقل: يا أمير المؤمنين من أي شيء ضحكت؟ قال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم فعل مثل ما فعلت ثم ضحك، فقلت: يا رسول الله من أي شيء ضحكت؟ قال: «إِنَّ رَبَّكَ سُبْحَانَهُ يَعْجَبُ مِنْ عَبْدِهِ إِذَا قَالَ: اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي، يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ غَيْرِي».

ومعنى مقررني كما ذكر ابن كثير في تفسيره: أي مقاومين، ولولا تسخير الله لنا هذا ما قدرنا عليه، ومعنى قوله: وإنا إلى ربنا لمنقلبون، أي: لصائرون إليه بعد مماتنا وإليه سيرنا الأكبر. قال ابن كثير: وهذا من باب التنبيه بسير الدنيا على سير الآخرة. فإذا كان في ركوب سفر ذكر الله بما جاء في "صحيح مسلم" عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا استوى على بعيره خارجاً إلى سفر كبر ثلاثاً، ثم قال: «سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ، وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ، اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا الْبِرَّ وَالتَّقْوَىٰ، وَمِنَ الْعَمَلِ مَا تَرْضَىٰ، اللَّهُمَّ هَوِّنَا سَفَرَنَا هَذَا، وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعَثَائِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ الْمَنْظَرِ، وَسُوءِ الْمُنْقَلَبِ فِي الْمَالِ وَالْأَهْلِ» وإذا رجع قاهن، وزاد فيهن: «آيُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ». هذا لفظ رواية مسلم. زاد أبو بكر في روايته "وكان النبي صلى الله عليه وسلم وجوشه إذا علوا الثنايا كبروا، وإذا هبطوا سبّحوا.

ثانياً: إزالة الضرر عن الطرق:

يستحب للسائر في الطريق، إذا وجد ما يعوق سير الناس أن يزيله، أو أن يتقدم إلى الجهة المسؤولة بطلب إزالته، وأن ذلك من الأسباب التي يغفر له بها الذنوب.

فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بينما رجل يمشي بطريق، فوجد غصن شوك على الطريق، فأخذه، فشكر الله له، فغفر له» [مسلم].

وقال أبو برزة: قلت: يا نبي الله، علمني شيئاً أنتفع به، فقال: «اعزل الأذى عن طريق المسلمين». [مسلم].

وإذا كان السائق مأموراً بأن يبعد الأذى عن الطريق، فمن باب أولى ألا يقوم هو بإيذاء الآخرين، ومن صور هذا الإيذاء إلقاء كل ما يضر في الطريق، من المخلفات، أو الوقوف بالسيارة في أماكن تمنع الآخرين من الخروج من المنزل، أو من المرور، أو تسبب لهم الضيق. أو قيادة السيارات التي تصدر دخاناً مؤذياً وساماً للناس أو أن يقف الأصحاء في المواقف المخصصة للمعاقين. أو استعمال المنبه في الأماكن السكنية، أو بصورة مزعجة.

فكل هذا من الضرر، والمتوقع من السائق المنضبط بخلق الإسلام ألا يوقعه بالناس.

ثالثاً: التعاون بين السائقين والمارة:

فمن آداب السواقة تعاون السائق مع إخوانه في الطريق من المارة والسائقين. فيقف لعجوز تريد أن تعبر الطريق أو لامرأة وأطفالها، ويهدي ضالاً عن طريقه ويأخذ بيد أعمى وضعيف، ويساعد سائقاً تعطلت سيارته في طريق عام، ويحمل لضعيف أمتعته إلى صندوق سيارته، ويفسح الطريق لسيارة الطوارئ والإسعاف ونحو هذا، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ومن كان في حاجة أخيه، كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة، فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة» [البخاري ومسلم].

رابعاً: نماذج لأخطاء قد يقوم بها السائق:

- القيادة بشكل أرعن يميناً ويساراً، أو بسرعات كبيرة داخل المدينة.
- الانفعالات العاطفية الشديدة وعدم اعتياد الصبر والحلم.
- استعمال الزمور بكثرة دون داع، أو إطلاق صوت المذياع عالياً للخارج ليسمع من في الشارع...!!

- لوم الآخرين ورفض الاعتراف بالخطأ، عندما يحدث اصطدام فيتم إلقاء المسؤولية مباشرة على أي شخص آخر، ورفض التفكير بالمخطئ الحقيقي، وهذا يعني رفض تحسين السلوك أو إصلاح الأخطاء.

- التباهي على الآخرين بالمركة الفارهة والسرعة الجنونية قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: 37]، وروى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله

صلى الله عليه وسلم قال: «بينما رجل يمشي في حلة، تعجبه نفسه، مرجل رأسه، يخال في مشيته، إذ خسف الله به، فهو يغوص في الأرض إلى يوم القيامة» [البخاري].

- السير في الطرقات بالسيارة من غير هدف ولا مصلحة يؤديها إلا قتل الوقت قال ابن مفلح: "واعلم أن الزمان أشرف من أن يضيع منه لحظة، فكم يضيع الآدمي من ساعات، يفوت فيها الثواب الجزيل، وهذه الأيام مثل المزرعة، كأنه قد قيل للإنسان: كلما بذرت حبة، أخرجنا لك ألفاً، هل ترى يجوز للعاقل أن يتوقف عن البذر أو يتوانى؟"

هذا بالإضافة إلى ما في ذلك من إتلاف للمال، باستهلاك الوقود والسيارة في غير مصلحة.

أيها الإخوة السائقون:

أقامكم الله في خدمة عباده فكم من مرة أسعفتكم مشرفاً على هلكة فنجاء، وكم من مرة رددتم ضالاً عن دربه إلى أهله فبكى، وكم من مرة يسرتم على معسر وقضيتكم حاجة ملهوف، تعينون الناس في الحر والقر في الليل والنهار في الحضر والسفر، وقد وردنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله: «أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس». [الطبراني].

لسانكم ذاكر وقلوبكم شاكر، تصبرون إذا أسىء إليكم، وتؤدون الأمانة لمن نسيها معكم، تسعون على رزق العيال، وتتكلمون على شديد المحال، فجزاكم الله عنا كل خير وحماكم في حلكم وترحالكم وأعطاكم خير مراكبكم وكفاكم شرها.

أيها الإخوة:

هذا ما أردت أن أحدثكم فيه في مهنة السواقفة من فقها وآدابها، واذكروا أن المطلب الرئيس من كل من يستمع لهذه الخطب أن يُحَكِّمَ شرع الله في مهنته، لئن فعلتَ فأنت تتعبد الله تعالى في مكان عملك تماماً كما تتعبد الله تعالى في مسجدك، وإن لم تفعل فحاول أن تفعل، وابدأ الآن.

والحمد لله رب العالمين